

النقد الأدبي منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي

د. بشير أحمد الميري

عضو هيئة تدريس بكلية التربية / جامعة المرقب

B.A.Almeeri@elmergib.edu.ly

تقديم:

أشرقت شمس الإسلام على شبه جزيرة العرب بنزول الوحي على رسول الله ﷺ، وجَدَّتْ بذلك عليهم مفاهيم وقيم جديدة، غيَّرت كثيراً ممَّا كان سائداً بينهم، سواءً فيما يتعلَّق بحياتهم الدِّينية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الثقافية، ولا شكَّ أنَّ ذلك ألقي بظلاله على الحركة الأدبية بعامة، والشَّعر منها بخاصة، حيث أثر الإسلام ومعجزته الخالدة القرآن الكريم في ذلك.

وبنزول القرآن الكريم على رسول الله، وبدئه ﷺ في تبليغ رسالة ربه، اتخذ أهل مكة منه موقفين متضادين:

موقف المؤمنين الذين صدَّقوا الرسول ﷺ، وآمنوا بالدين الجديد، واطمأنَّت نفوسهم إلى ما فيه من مبادئ سامية، وتوجيهات كريمة، وموقف المعاندين الذين كفروا بالدين الجديد، وكذَّبوا الرسول ﷺ، وناصروه العدا.

وما أن هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة حتى استفحل الأمر، وبدأ الصراع بين الفريقين، واتخذ مناحي متعددة، فسلط شعراء المشركين ألسنتهم على الرسول يهجون، ويحاولون الطعن في رسالته، ويدعون قومهم لمقاومته، والنبات على دين آبائهم وأجدادهم، من أولئك الشعراء: عبد الله بن الزبيري، وعمر بن العاص، وأبي سفيان ابن عبد المطلب، وكان ذلك يحزُّ في نفس الرسول ﷺ ويضايقه، فطلب من شعراء المسلمين أن يردُّوا عليهم، فأخذ يشجعهم، ويحثهم على التصدي لشعراء المشركين، روي عنه ﷺ أنه قال: "لأنصار: " ما يمنع الذين نصرُوا رسول الله ﷺ بسلامتهم أن ينصروه بألسنتهم"، وقال لحسان: " اهج قريشا ومعهك روح القدس"، فاستجاب لدعوته نفر من الشعراء في مقدمتهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب ابن مالك، فقامت بينهم وبين شعراء المشركين معارك ومساجلات كلامية، حفظت لنا كتب السيرة والمغازي كثيراً منها، سنعرض لبعضها في المبحث الأول من هذا البحث.

لقد سار العرب في صدر الإسلام على خطا أسلافهم من الجاهليين، فكانت لهم مواقف نقدية انفعالية، تصدر فيها الأحكام خالية من أي تعليل، ولكنها كانت عاملاً مهماً من العوامل التي ساعدت على تقدُّم الشَّعر، ووصوله إلى هذه الدَّرجة العالية من الجودة والتألق.

وقد واكبت الحركة النقدية - رغم بساطتها - ما حدث من تغيرٍ، فجاءت الملاحظات النقدية التي وصلت إلينا متمشية مع ما غرسه الإسلام في نفوس أتباعه من الحب والعطف والتسامح، والالتزام بالصدق، ونبذ الكذب والفسق والفجور، والابتعاد عن القبيح من القول.

ثمَّ بدأت تلك الحركة النقدية تنمو وتتطوّر - وخاصة في أواخر القرن الأول الهجري - مع تطوّر العرب وتقدمهم بسبب اختلاطهم بغيرهم من الأمم الأخرى، واكتسابهم ثقافات متنوّعة، وحرصهم على طلب العلم والمعرفة اتّباعاً لتوجيهات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وصولاً إلى مرحلة الجمع والتّدوين، ثمَّ البحث والتأليف، وكانت لهذا التطور أسباب شتى، سنذكر بعضها في المبحث الثاني من هذا البحث.

وهذا التطوّر دفعني لمحاولة دراسته في بحث أسميته (النقد الأدبي منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي)، متّبِعاً في دراسته المنهج التاريخي، ومعتمداً على مجموعة من المصادر المتعلّقة بالموضوع.

وسيبني هذا البحث على مبحثين وخاتمة.

في المبحث الأول وقفة مع الحركة النقدية في عصر صدر الإسلام.

أمّا المبحث الثاني فيهتم بالحديث عن حالة النقد في العصر الأموي.

وفي الخاتمة عرض لأهمّ نتائج البحث.

المبحث الأول/ الحركة النقدية في عصر صدر الإسلام

صدر الإسلام يعني عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، أي الفترة الزمنية التي ابتدأت بنزول الوحي على الرسول ﷺ وانتهت بقيام دولة بني أمية سنة 41هـ.

ولما كانت الحياة الأدبية في هذه الفترة - وبخاصة في عهد الرسول ﷺ - تتمثل أكثر ما تتمثل في الشعر، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو ما موقف الرسول ﷺ وشعره هذا العصر من الشعر؟

لقد نزه الله ﷻ رسول الله ﷺ عن تعاطي الشعر، قال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ⁽¹⁾، وقد نقل رواة الحديث عنه ﷺ كلمات تعبر عن رأيه في الشعر قد توحى لقارئها أن للرسول مواقف متناقضين من الشعر.

فقد روي عنه ﷺ قوله: "لأن يمتلي جوف أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتلي شعراً"⁽²⁾، وقوله ﷺ: "إن من الشعر لحكمة"⁽³⁾، وقوله: "أصدق بيت قاله الشاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل"⁽⁴⁾، ومراً بنا في مقدمة البحث كيف كان يطلب من شعرائه الوقوف ضد شعراء قريش، والتصدي لهم، والدفاع عن الإسلام ومبادئه ورسوله، فهل هذا تناقض في موقفه ﷺ من الشعر؟

إن الظاهر من تلك الأقوال والمواقف يوحى بالتناقض، ولكن الواقع ينفي ذلك نفياً باتاً، فهو إذ يذم الشعر لا يذمه على إطلاقه، وإنما يذم منه ما يتناقض وتعاليم الإسلام، ويفرق كلمة العرب، ويذكي فيهم روح العصبية والشقاق، إنه الشعر الصادر عن الله تعالى في حقهم: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمَ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ⁽⁵⁾، أما الشعر الذي يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، وينتصر للإسلام ويدافع عنه، الشعر الصادر عن استئناسهم بالله ﷻ بقوله ﷻ: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا⁽⁶⁾، فهو يحبه ويمدحه،

1 - سورة يس، من الآية 69.

2 - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج 4 ص 1769.

3 - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، ج 2، ص 1235.

4 - الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ - 1987م، ج 5، ص 2380.

5 - سورة الشعراء، الآيات: 224:226.

6 - سورة الشعراء، من الآية: 225.

ويثني على منشدیه، ويحثهم على المضی فیہ، فلا تناقض إذا فی موقف الرسول من الشعر، فالحسن عنده ما كان متوافقاً مع روح الإسلام والمبادئ التي بني عليها، والسبب ما كان على الضد من ذلك⁽¹⁾.

نقل الرواة أنَّ نابعة بني جعدة قدم المدينة مع وفد من وجهاء قومه للقاء الرسول ﷺ، فأنشده قوله [من الطويل]:

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى *** وَيَتْلُو كِتَاباً كَالْمَحَرَّةِ نَيْرَا

إلى أن قال:

بَلَعْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُونَا *** وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا⁽²⁾

وقد أحسن الرسول ﷺ بعد سماعه هذا البيت أنَّ النَّابِغَةَ يَفْتَخِرُ فَخْرَ الْجَاهِلِيِّينَ، فسأله: "إِلَى أَيْنَ يَا أبا لَيْلَى؟" فأجاب: إلى الجنة يا رسول الله، فاستبشر الرسول ﷺ بجوابه، وقال له: "نعم إلى الجنة إن شاء الله"، فلما وصل إلى قوله:

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ *** حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ *** بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا.

ازداد إعجاب الرسول ﷺ به، ودعا له بقوله: "لا يفيض الله فاك"⁽³⁾.

وسمع الرسول ﷺ قول طرفة بن العبد [من الطويل]:

سُبَيْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا *** وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ⁽⁴⁾

فاستحسن شعره، وقال ﷺ: "هذا من كلام النبوة"⁽⁵⁾.

فالرسول ﷺ في هذه المواقف وغيرها. نراه يستمع إلى الشعر، ويعجب به، ويتجه بالنقد اتجاهاً جديداً قوامه التأثير بالمثل العليا التي جاء بها الإسلام، والابتعاد عما كان في الجاهلية، وميزان الشعر عنده يتمثل في مدى مطابقتها لتلك المثل من عدمها، ولا غرو في ذلك، فقد نقل عنه قوله: "الشعر كلام من كلام العرب جزل، تتكلم به في بواديها، وتسلم به الضغائن من بينها"⁽⁶⁾، وقوله: "إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"⁽⁷⁾. وقوله: "الشعر كلام حسن كحسن الكلام وقبيح كقبيح"⁽⁸⁾.

- 1 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ص 42 وما بعدها.
- 2 - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق/ سمير جابر، دار الفكر، ط/2، بيروت، د.ت: 14/5.
- 3 - ينظر: الشعر والشعراء، للعلامة أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حقق نصوصه وعلق حواشيه وقدم له الدكتور/ عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط/1، 1418هـ، 1997م، ص 193.
- 4 - ديوان طرفة، شرحه وقدم له/ مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/2، 1423 هـ، 2002م، ص 29.
- 5 - ينظر: العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، تحقيق/ الدكتور/ عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1404هـ، 1983م: 306/2.
- 6 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق، تحقيق/ محمد محي الدين الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط/5، 1401هـ، 1981م، 27/1.
- 7 - المصدر السابق، 28/1.
- 8 - المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الرشد، السعودية/ الرياض 1422هـ - 2001م، 206/9.

وكانت للخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً وقفات نقدية، ساروا فيها سيرة الرسول ﷺ، فكانوا ينظرون إلى الشعر بمنظار جديد، قوامه مدى توافق هذا الشعر مع المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام، وكانوا يميزون بين ما بأيديهم من الشعر، فيحضون على ما هو حسن مفيد، ويعاقبون على ما هو شائن ضار، وكان أكثرهم نشاطاً في ميدان النقد، وأشدّهم تأثيراً فيه: الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذلك لأنه كان علامة بالشعر، يحب الاستماع إليه، والاسترواح به⁽¹⁾، كما كان يتمتع بثقافة أدبية واسعة، أهله لأن يتبوأ هذه المكانة المرموقة في مجال النقد في عصره، وفي سيرته ﷺ مواقف كثيرة تدل على تعلقه بالشعر، وقدرته على نقده، وتمييز الجيد من الرديء منه، حتى قيل عنه: إنه كان " من أنقد أهل زمانه للشعر، وأنفذهم فيه معرفة"⁽²⁾.

وكانت أحكام عمر النقدية تدل على أنه ناقد متبصر، يقدر الشعر، ويقبسه بمقياس الرسول ﷺ، فالحسن منه ما كان موافقاً للحق، وما لم يوافق الحق فليس بحسن، وقد استمع إلى قول زهير بن أبي سلمى [من الوافر]:

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ *** يَمِينٌ أَوْ نَفَارٌ أَوْ جَلَاءُ⁽³⁾

فأعجبه ذلك، وقال: " لو أدركت زهيراً لولّيته القضاء لمعرفته"⁽⁴⁾.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدني لأشعر شعرائكم.

قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك؟ قال: كان لا يعاقل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه⁽⁵⁾.

وهنا نلاحظ ظاهرة جديدة في نقد عمر، فهو حين قدم زهيراً على الشعراء شرح وبين سبب تفضيله له، ف شعر زهير في نظره: سهل العبارة، لا تعقيد فيه، بعيد عن المغالاة والتكلف، خال من الزيف والنفاق⁽⁶⁾.

وأنشده سحيم عبد بني الحسحاس قوله [من الطويل]:

عُمَيْرَةٌ وَدَّعْ إِنَّ جَهَّزْتَ عَادِيَا *** كَفَى السَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا⁽¹⁾

1 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق، ص 61.

2 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: 33/1.

3 - شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه/ الدكتور حنا نصر، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1424هـ، 2004م، ص 82.

4 - كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1406هـ، 1986م، ص 342.

5 - ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني: 99/1.

6 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، حارة حريك، ص 37.

فقال له عمر: لو كنت قدّمت الإسلام على الشَّيب لأجزتك⁽²⁾، وهذا صريح في اتجاه عمر الدِّيني في النقد، فهو معجب بشعر سحيم، ولكنّه انتقده بسبب تقديمه للشَّيب على الإسلام.

كما كانت لعمر وقفات نقدية أخرى يتّضح فيها مدى اتّساع ثقافته التّقدّية وعِظمتها، وقدرته على تأويل الكلام.

أتاه وجهاء بني العجلان يشكون إليه النّجاشي الشّاعر، ويستعذّونه عليه، فقالوا له: يا أمير المؤمنين كفّ عنّا لسان النّجاشي فقد هجانا.

فقال ﷺ: وماذا قال؟ فقالوا: قال [من الطّويل]:

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لُؤْمٍ وَرِقَّةٍ *** فَعَادَى بَنِي الْعَجْلَانِ رَهْطَ ابْنِ مُثَبِّلٍ⁽³⁾

فقال: إنّ الله لا يُعادي مسلماً، وأخذ الوجهاء يُسمعون ما قال فيهم النّجاشي وهو يحاول دفع مظنة الهجاء عن كلّ بيت، وكان عمر ﷺ أعلم بما في هذا الشّعر، ولكنّه كان يحاول أن يدرك الحدود بالشُّبهات، فاستدعى حسان بن ثابت ﷺ، وأخذ رأيّه في هذه القضية، ثمّ وبّخ النّجاشي، وهدّده بقطع لسانه إن عاد إلى مثل ذلك⁽⁴⁾.

وجاور الخطيئة الزّريقان بن بدر فلم يحمّد جواره، فتحول عنه، وهجاه بقوله [من البسيط]:

مَا كَانَ ذَنْبٌ بَغِيضٍ أَنْ رَأَى رَجُلًا *** ذَا فَاقَةٍ عَاشَ فِي مُسْتَوْعِرٍ شَاسٍ

جَارًا لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنْزِلِهِ *** وَغَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسٍ

مَلُّوا قَرَاهُ وَهَرَّتْهُ كِلَابُهُمْ *** وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسٍ

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِيُعَيْتَهَا *** وَأَفْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي⁽⁵⁾

فشكاه الزّريقان إلى عمر بن الخطاب ﷺ، واستعده عليه، وأنشده الأبيات التي هجاه بها، فقال له عمر: لم يهجك وإنما مدحك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ قال له الزّريقان: إنّ لا يكون في الهجاء أشدّ من هذا، فأرسل عمر ﷺ إلى حسان بن ثابت، وسأله عن ذلك، فقال: لم يهجه ولكن سلح عليه! فحبسه عمر ﷺ وقال: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين⁽⁶⁾.

- 1 - ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات ابن الأنباري، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بمصر، ط 4، 1961م: 1/168، وسر صناعة الإعراب، أبي الفتح عثمان ابن جني، تحقيق/ الدكتور/ حسن هنداي، دار القلم، دمشق، ط/1، 1985م: 1/141.
- 2 - ينظر: الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1419هـ، 1999م: 1/272.
- 3 - العقد الفريد، ابن عبد ربه: 2/324.
- 4 - ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص226.
- 5 - ديوان الخطيئة، اعتنى به وشرحه/ حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2، 1426هـ، 2005م، ص85.
- 6 - ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص223، 224.

وكانت لبقية الخلفاء الراشدين ؓ وقفات في النقد أيضاً، وحتى إن كانت لا ترقى إلى ما نُقل عن عمر ؓ فإنها تدلُّ على أنَّهم قد اكتسبوا ثقافة نقدية ذات طابع أخلاقي متناسق مع أهداف ومبادئ الدين الإسلامي.

روي أنَّ أبا بكر الصديق ؓ سمع ليبيدا ينشد قوله [من الطويل]:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ⁽¹⁾

فقال صدقت! فلما قال:

قال: كذبت! عند الله نعيم لا يزول!⁽²⁾.

وأُشيد عثمان بن عفان ؓ قول زهير [من الطويل]:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ *** وَإِنْ خَالَهَا تَحْتَمَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ⁽³⁾

فقال: أحسن زهيراً وصدق، لو أنَّ رجلاً دخل بيتاً في خوف بيت لتحدث به الناس⁽⁴⁾.

وكان علي بن أبي طالب ؓ قد دأب على إفطار الناس في شهر رمضان، فإذا فرغوا من العشاء تكلم، فأقل كلامه وأوجز، فأبلغ. فاختصم الناس ليلة حتى ارتفعت أصواتهم في أشعر الناس، فقال علي ؓ: "كلُّ شعرائكم مُحسنٌ، ولو جمعهم زمان واحد، وغاية واحدة، ومذهب واحد في القول، لعلمنا أنَّهم أسبق إلى ذلك، وكلُّهم قد أصاب الذي أراد، وأحسن فيه، وإن يكن أحد فضلهم، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر، فإنه كان أصحهم بادره، وأجودهم نادره"⁽⁵⁾.

فالمفاضلة بين شاعرين لا تتم إلا إذا اتحدت المواقف وتشابحت الأغراض؛ لأنَّ أحدهما قد يساعده الزمان والمكان والحال والباعث على التغلغل إلى استشارة تخاييل ومحاكاة في شيء لا يساعد الآخر شيء من ذلك عليه، وقد تكون حال الآخر في غير ذلك الشيء بمنزلة صاحبه في ذلك الشيء، وقد تختلف حالاهما في اللغة، وتختلف حالاهما في الروية ومقدار جوامع كل واحد منهما، ونشاطه للقول في حال الروية، ولذلك قد يعسر الحكم في المفاضلة بين الشاعرين في جودة الطبع وفضل القرينة، ولكن تمكن المفاضلة بين قولهما إذا اجتماعاً في غرض ووزن وقافية"⁽⁶⁾.

والإمام علي ؓ في هذا الموقف أسس لمبدأ نقدي غاية في الأهمية، اعتمده النقاد من بعده هو (الموازنة) بين الشعراء، وهو لم يكتف في حكمه بأفضلية امرئ القيس على غيره من الشعراء بحكم غير معلل، بل أردف حكمه بأسبابه وحديثاته كفعل عمر

1 - ديوان ليبيد بن ربيعة، اعتنى به/ حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/1، 1425 هـ، 2004م، ص85.

2 - ينظر: الموشح (مأخذ العلماء على الشعراء) في عدّة أنواع من صناعة الشعر، محمد بن عمران ابن موسى، أبو عبيد الله المرزباني، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.، ص17.

3 - شرح ديوان زهير، ص51.

4 - ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1367هـ، 1947م: 329/1.

5 - ينظر: الأغاني، الأصفهاني: 406/16.

6 - منهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، المطبعة الرسمية، تونس، 1966م، ص276.

مع زهير، وتلك الأسباب والحشيات تتمثل في أن امرأ القيس لم يقل لخوف ولا طمع، وأنه كان أحسن الشعراء التقاطاً لجواهر المعاني، وأسبقهم بديهة وابتكاراً في طرائق الشعر⁽¹⁾.

أما عن موقف شعراء هذا العصر من الشعر فعلى الرغم من انصراف كثير منهم - ممن أسلم - عنه إلى الاهتمام بحفظ القرآن الكريم ودراسته وفهمه، وانشغالهم بالجهاد في سبيل الله ونصرة رسوله، فإن حركة الشعر ظلت قائمة بينهم، لقد بمرهم ما جاء به الدّين الجديد من قيم ومبادئ، فقصروا شعرهم على التبشير بها، والدعوة إليها، والوقوف في وجه من يحاول الطعن فيها، أو النيل من الرسول ﷺ، ونشبت بينهم وبين شعراء قريش عند اشتداد المعارك وبعدها مساجلات ومعارك كلامية، وفي ما قيل من الشعر في تلك المواقف نلاحظ روح النقد، والتتبع بين الشعراء أنفسهم، وتبين منه أن الأصل الذي بنى عليه جرير والفرزدق نقائضهما قد وجد كامل الأركان في تلك الفترة.

يقول حمزة بن عبد المطلب فرحاً ومستبشراً بما حققه الرسول ﷺ والمسلمون من النصر في غزوة بدر:

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر *** وللحين أسباب مبينة الأمر⁽²⁾

فيتصدى له الحارث بن هشام بن المغيرة محاولاً نقض قصيدته بقصيدة على وزنها ورويها فيقول:

ألا يا لقومي للصبابة والهجر *** وللحزن مني والحرارة في الصدر⁽³⁾

وفي غزوة بدر أيضاً يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ألم تر أن الله أبلى رسوله *** بلاء عزيز ذي اقتدار وذو فضل⁽⁴⁾

ويرد عليه الحارث بقصيدة على وزنها ورويها فيقول:

عجبت لأقوام تغني سفيهم *** بأمر سفاه ذي اعتراض وذو بطل⁽⁵⁾.

وينشد ضرار بن مرداس مشجعاً كفار قريش، ومتوعداً بالنيل من الأنصار والانتقام منهم:

1 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد العزيز عتيق، ص 83.

2 - السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411هـ، ج 3، ص 278.

3 - السيرة النبوية لابن هشام 3/ 280.

4 - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالح الشامي، الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 4/ 125.

5 - السيرة النبوية لابن هشام، 3/ 280.

عجبت لفخر الأوس والحين دائر *** عليهم غداً والدهر فيه بصائر⁽¹⁾

فيحييه كعب بن مالك:

عجبت لأمر الله والله قادر *** على ما أراد ليس لله قاهر⁽²⁾

ويفرع عبد الله بن الزبيري من هول ما رأى في بدر، ويرثي القتلى من سادة قريش فيقول:

ماذا على بدر وماذا حوله *** من فتية بيض الوجوه كرام

فيشمت به حسان بن ثابت، ويرد عليه قائلاً:

ابك بك عيناك ثم تبادرت *** بدم تعل غروبها سحام⁽³⁾

ومن هذه النقائض وغيرها مما قيل من الشعر في تلك المواقف نتبين تنبه ملكة النقد عند العرب في ذلك الوقت، فصاحب النقيضة يتتبع ما قال غريمه ويحاول نقضه بالنظم على وزنه ورويّه، وهو نقد قريب من النقد العملي لما فيه من المحاكاة الظاهرة، ومن هدم للأفكار والمعاني⁽⁴⁾.

كما كانت لبعض الولاة مواقف مع بعض الشعراء ومن يهتمون بالأدب وما يتعلّق به، من ذلك ما رواه أبو عبيدة من أنّ الحطيئة حضر مأدبة عشاء أقامها سعيد ابن العاص والي المدينة، وكان في هيئة رثة بحيث لم يعرفه أحد، وعندما بدأ الناس يخرجون تباطأ الحطيئة فلم يخرج معهم، وذهب الشرط يقيمونه فأبى أن يقوم، وحانت من سعيد التفاتة فقال: دعوا الرجل، فتركوه، وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها ملياً، فقال لهم الحطيئة: والله ما أصبتم جيّد الشعر، ولا شاعر العرب، فقال له سعيد: أتعرف من ذلك شيئاً؟ قال: نعم، قال: فمن أشعر العرب؟ قال: الذي يقول [من الخفيف]:

لا أعدّ الإقتار عُدماً ولكن *** فقد من قد رزنته الإعدام⁽⁵⁾

وأنشدها حتّى أتى عليها، فقال له: من يقولها؟ قال: أبو دؤاد الإيادي.

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول [من البسيط]:

- 1 - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين، علي عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى - 1417هـ، 46/2.
- 2 - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالح الشامي: 126/4.
- 3 - السيرة النبوية لابن هشام، 280/3.
- 4 - ينظر: دراسات في نقد الأدب العربي، الدكتور/ بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7، 1395هـ، 1975م: ص79: 81.
- 5 - ديوان أبي دؤاد الإيادي، إعداد الدكتور/ محمد يوسف نجم، بيروت، د.ت، ص353.

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُدْرِكُ بِأَلَا *** جَهْلٍ وَقَدْ يُخْدَعُ الْأَرِيبُ⁽¹⁾

ثم أنشدتها حتى فرغ منها، قال: ومن يقولها؟ قال عبيد بن الأبرص، قال: ثم من؟ قال: والله لحسبك بي عند رغبة أو رهبة إذا رفعت إحدى رجلتي على الأخرى ثم عويت في أثر القوافي عواء الفصيل الصّادي⁽²⁾.

إنّ الملاحظات النقدية التي صدرت عن الخطيئة أتت عفوية صادرة عن ذوق شخصي، ولا أثر فيها لذكر علة أو سبب، على الرغم من كونها صادرة عن شاعر فحل، مشهود له بالسبق والعبقريّة في قرض الشعر، وتعلّقه به، ومقدرته على نقده، وفي قصّته عندما حضرته الوفاة شاهد على ذلك، فقد كان القوم يطلبون منه أن يوصي بما ينفعه بعد الموت، وكان هو يُسمعهم أبياتا لبعض الشعراء مبديا رأيه في جودتها، ومدى تفوّق أصحابها⁽³⁾.

المبحث الثاني/ الحركة النقدية في مجالس بني أمية.

بوصول بني أمية إلى سدة الخلافة تغيّرت الأحوال، فقد أصبح للخلفاء مجالسهم الخاصة التي تشبه مجالس الملوك من حولهم، وكانت هذه المجالس منتدى للشعراء والأدباء يمدحون الخليفة ويشيدون بمناقبه، وينالون عطايها.

ولكنّ الأحكام النقدية - على الرغم من هذا التطور - ظلت لفترة من الزمن على ما هي عليه من البساطة، والانفعالية، قليلا ما تُعزّز بذكر علة أو سبب، ولعلّ ذلك يرجع إلى انشغال المسلمين بالفتوحات، وخنوس الشعراء نوعا ما.

ومع اقتراب القرن الأوّل الهجري من نهايته تغيّرت الحال كثيرا، فقد ازدهر الشعر الإسلامي، وكثر الشعراء الذين شَبُّوا في الإسلام، ونضجت ملكاتهم الشعرية، وتعدّدت بيئاتهم ونزعاتهم السياسية، كما كانت لهم مذاهب أدبية مختلفة، فاحتلّوا مكان الصدارة في مجالس بني أمية، وغيرها من المجالس الأدبية التي كانت تُعقد في ذلك الوقت، فأثروا بأشعارهم، وأضفوا عليها طابعا جديداً، وحولوها إلى ما يشبه منتديات للنقد، يتخلّلها بين الحين والآخر نقاش بين الخليفة ومن حضر مجلسه، وبين رؤاد المجالس الأخرى التي لا تقل ثراءً فكرياً وأدبياً عن مجالس الخلفاء، بحيث يتناول ذلك النقاش بيتاً من الشعر، أو معنى من المعاني أحسن فيه الشاعر وأجاد، أو أساء فيه وقصّر؛ لتنتهي تلك المناقشات عادة بنقد الشاعر، وتوجيه الملاحظات السديدة له، وتنبهه إلى خطئه إن أخطأ، نذكر من هؤلاء: عدي بن الرقاع، وعبد الله بن قيس الرقيات، وعمر بن أبي ربيعة، وغيرهم.

1 - ديوان عبيد بن الأبرص، شرح/ أشرف أحمد عذرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1414 هـ، 1994 م، ص 22.

2 - ينظر: الأغاني، الأصفهاني: 229/17.

3 - ينظر: المصدر السابق: 187/2، 188.

وكان لذلك أسباب عديدة، منها: تحضر العرب، واستقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، ونخضتهم العقلية، ثم ذلك الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة، فكان طبيعياً لذلك كله أن تكثر الملاحظات البيانية والنقدية؛ تلك التي نلتقي بها في تراجم بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين في كتاب مثل كتاب الأغاني⁽¹⁾.

ومن الأسباب: تعدد بيئات النقد في البادية والحواضر الإسلامية، كمكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق، ورجوع العصبية العربية، ورغبة خلفاء بني أمية في توطيد أركان حكمهم، بيث الخصومة بين الشعراء، وإذكاء روح العداوة والمهاجرة بينهم⁽²⁾.

وكان أكثر خلفاء بني أمية ولعاً بهذه المجالس، ومساهمة فيما يدور فيها من جدل ونقاش، عبد الملك بن مروان.

نقل الرواة أنه سمر ذات ليلة وعنده كثير عزة فقال له: أنشدني بعض ما قلت في عزة. فأنشده، حتى إذا أتى على هذا البيت [من الطويل]:

هَمَمْتُ وَهَمْتُ ثُمَّ هَابْتُ وَهَبْتُهَا *** حَيَاءً وَمُثْلِي بِالْحَيَاءِ حَقِيقُ⁽³⁾

قال له عبد الملك: أما والله لولا بيت أنشدتني قبل هذا لحرمك جائزتك، قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنك شركتها معك في الهيبة، ثم استأثرت بالحياة دوحها، قال:

فَأَيُّ بَيْتٍ عَفَوْتُ بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قال قولك [من الطويل]:

دَعُونِي لَا أُرِيدُ بِهَا سِوَاهَا *** دَعُونِي هَائِماً فِيمَنْ يَهِيمُ⁽⁴⁾.

فهذا النقد من عبد الملك يدل على أنه كان عالماً بالأدب، قادراً على التعمق في فهم الشعر وتذوقه، ثم نقده نقداً مشفوعاً بذكر العلة والسبب⁽⁵⁾، فهو ينتقد كثيراً لأنه وصف نفسه بأوصاف يستحيل وجودها في العاشق المتيم، وهو بذلك يوافق آراء النقاد المتأخرين الذين أجمعوا على أن "النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابي والرقّة، أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والدلّة، أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزّ، وأن يكون جماع الأمر ما ضادّ التحفّظ والعزيمة، ووافق الانحلال والزخاوة"⁽⁶⁾.

ودخل الأقيشر على عبد الملك بن مروان يوماً وعنده قوم، فتذاكروا الشعر، وذكروا قول نصيب [من الطويل]:

1 - ينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1405هـ، 1985م، ص 7، 8.

2 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، ص 40 وما بعدها.

3 - ديوان كثير عزة، حققه/ الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م، ص 505.

4 - المصدر السابق، ص 509.

5 - ينظر: دراسات في نقد الأدب العربي، الدكتور/ بدوي طبانة، ص 104.

6 - نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 134.

أَهَيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيْثُ فَإِنْ أُمْتُ *** فَيَا وَبَيْحَ دَعْدٍ مَنْ يَهَيْمُ بِهَا بَعْدِي⁽¹⁾

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله؟ قال: كنت أقول [من الطويل]:

تُحِبُّكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ *** أَوْكَلُ بِدَعْدٍ مَنْ يَهَيْمُ بِهَا بَعْدِي

قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ قولاً منه حين تُوكَلُ بها! فقال الأقيشر: فكيف كنت

تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول [من الطويل]:

تُحِبُّكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ *** فَلَا صَلَاحَ هُنْدَ لِيذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم⁽²⁾.

ومن القصص الطريفة التي كانت تدور في مجالس الخلفاء من بني أمية، وتدُلُّ دلالة واضحة على ما وصل إليه الذوق العربي في العصر الأموي من رقيٍّ وتقدم، ما روي من أنَّ هشام بن عبد الملك قال لخالد بن صفوان: صف لي جريراً والفرزدق والأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا أعظمهم فخراً، وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأسيئهم مثلاً، وأقلهم غزلاً، وأحلامهم عللاً، البحر الطامي إذا زخر، والحامي إذا دعر، والسامي إذا خطر، الذي إذا هدر جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق.

وأمّا أحسنهم نعتاً، وأمدحهم بيتاً، وأقلهم فؤتاً، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع، فلاأخطل.

وأمّا أغزّهم بحراً، وأرقّهم شعراً، وأكثرهم ذكراً، الأغزُّ الأبلق، الذي إن طلب لم يُسبق، وإن طلب لم يُلحق، فجرير، وكلهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العماد، واري الرّناد.

قال مسلمة بن عبد الملك، وكان حاضراً: ما سمعنا يا ابن صفوان مثل هذا في الأولين ولا في الآخرين، أشهد أنك أحسنهم وصفاً، وألينهم عطفاً، وأحفهم مقالاً، وأكرمهم فعلاً.

فقال خالد: أتمّ الله عليك نعمه، وأجزل لك قسمة، أنت والله أيُّها الأمير - ما علمت - كريم الغراس، عالم بالناس، جواد في المخل، بسّام عند البذل، حلیم عند الطيش، في الدّرة من قريش، من أشرف عبد شمس، ويومك خيرٌ من الأمس⁽³⁾.

1 - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، للخالديّ: أبي بكر محمد، وأبي عثمان سعيد ابني هشام، حققه وعلق عليه الدكتور/ السيد محمد يوسف، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، د. ت: 63/1.

2 - الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص 294، 295.

3 - ينظر: الأغاني، الأصفهاني: 86/8.

فهذه القصّة وغيرها ممّا تناقلته كتب الأدب والنقد، خير شاهد على تلك القفزة الهائلة التي حقّقها الأدب العربي بعامة، والنقد الأدبي منه بخاصّة، بفضل تأثّر العرب بالقرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وبما اكتسبوه من ثقافات الأمم الأخرى، التي اعتنق أبنائها الدّين الجديد بعد انتشاره خارج شبه الجزيرة العربيّة.

وإلى جانب مجالس الخلفاء والأمراء كانت هناك مجالس أخرى لا تقلّ عنها أهميّة في مدارس الشّعْر ونقده، والخوض في شتى فنون الأدب، ونعني بها مجالس بعض خواصّ القوم، ممّن تيسّرت معيشتهم، ووُسّع عليهم في رزقهم، وأوتوا حظاً من العلم بفنون القول، فكانوا يعقدون مجالس يلتقي فيها الشّعراء، ومن لهم شيءٌ من الظّرف، يتناشدون الشّعْر، ويخوضون في نقده، وهذا يدلُّ على أنّ عناية العرب بالشّعْر، وكلفهم بنقده، أصبحت شيئاً مألوفاً بالنّظر لما طرأ على حياتهم من مستجدّات.

وكانت هذه المجالس عامّة يشترك في عقدها الرّجال والنساء، وقد نقلت لنا كتب الأدب والنقد أخباراً عن سيّداتٍ من آل بيت رسول الله ﷺ (السّيّدة سكينة بنت الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، وابنة عمّها عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب) أُنهنّ كنّ يعقدن مجالس للأدب، يحضرها الشّعراء وغيرهم من محبّي الشّعْر، ويتناقشن معهم، وينقدن شعرهم⁽¹⁾، وإن كنّا لا نجزم بصحّة كلّ ما نسب إليهما من أخبار بالنّظر لما كان يدور في هذه المجالس من الحديث الجاني لما كانت عليه نساء آل البيت من العفة والحشمة والحياء.

وكانت للشّعراء أنفسهم وقفاتٌ مع نقد الشّعْر، ولو أنّها كانت في معظمها لا ترقى إلى المستوى المأمول، كانوا يلتقون في أحيان كثيرة للمتعة والسّم، وكانت مادّة حديثهم كلّما جمعهم المجلس: الشّعْر وما يتعلّق به، كانوا يتدارسونه فينظرون في محاسنه، وينقدون عيوبه.

وكان عمر بن أبي ربيعة أوفر الشّعراء حظاً من هذا النقد، يُروى أنّه قدم المدينة، فالتقى فيها الشّعراء الأحوص ونُصيب، فتحادثوا في الشّعْر ملياً، ثمّ سألهما عمر عن كُثير عزة، فقالا: هو هاهنا قريب، فانطلقوا إليه، فألقوه جالساً في خيمة له، فجلسوا وجعلوا يتحدثون في الشّعْر والشّعراء، وأفاضوا في ذلك، فالتفت كُثير إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: إنّك لشاعر لولا أنّك تُشبّب بالمرأة ثمّ تدعها وتُشبّب بنفسك، أخبرني عن قولك [من المنسرح]:

ثُمَّ اسْبَطَرْتُ تَشْتَدُّ فِي أُنْزِي *** تَسْأَلُ أَهْلَ الطَّوْافِ عَنْ عُمَرُ⁽²⁾

والله لو وصفت بهذا هزّة أهلك لكان كثيراً! ألا قلت كما قال هذا، وأشار إلى الأحوص [من الطويل]:

أُدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ *** بِأَبْيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ

وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنَّ ذَا الْهَوَى *** إِذَا لَمْ يُزَرَ لَا بُدَّ أَنْ سَيُزُورُ⁽¹⁾

1 - ينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه: 190/6، 191، والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافعي، لأبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، تحقيق الدكتور/ محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت، ط/1، 1413هـ، 1993م: 101/4، 102.

2- ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ت، ص 110. (اسبطرت: أسرع).

فانكسرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوص زهوة، ثم التفت إلى الأحوص، فقال: أخبرني عن قولك [من الوافر]:

فإن تصليي أصلك وإن تبيني *** يحرك بَعْدَ وَصْلِكَ، مَا أُبَالِي⁽²⁾

أما والله لو كنت حُرّاً لبأيت ولو كُسر أنفك، ألا قلت كما قال هذا الأسود، وأشار إلى نُصيب [من الطويل]:

بُرَيْتَبَ أَلِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ *** وَقُلْ إِن تَمَلَّيْنَا فَمَا مَلِكُ الْقَلْبِ⁽³⁾

فانكسر الأحوص ودخلت نُصيباً زهوة. ثم التفت إلى نُصيب، فقال له: أخبرني عن قولك [من الطويل]:

أَهْيِمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ *** فَيَا وَبَحْ دَعْدٍ مَنْ يَهْيِمُ بِهَا بَعْدِي⁽⁴⁾

أَهْمُكَ ويحك مَنْ يفعل بها بعدك، فقال القوم: الله أكبر استوت الفرق قوموا بنا من عند هذا⁽⁵⁾.

وإذا كان كثير عزة قد قلل في هذا الموقف من شاعريّة عمر، وخطأ من شأنه، بما أخذه عليه في النسيب، فإن شعراء آخرين رأوا في عمر غير ما رآه كثير.

رُوي أنّ عمر بن أبي ربيعة اجتمع وجميل بن عبد الله بن معمر العذري بالأبطح، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها [من الطويل]:

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأْشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي *** بُثَيْنَةُ أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ

يَقُولُونَ مَهْلاً يَا جَمِيلُ وَإِنِّي *** لِأُقْسِمَ مَا لِي عَنْ بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلٍ⁽⁶⁾

حتى أتى على آخرها، ثم قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الرّوي شيئاً؟ قال نعم، قال: فأنشدني، فأنشده قوله [من الطويل]:

جَرَى نَاصِحٌ بِالْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا *** فَفَرَّقَنِي يَوْمَ الْحِصَابِ إِلَى قَتْلِي

فلما وصل إلى قوله:

فَقُتِمَ وَقَدْ أَفْهَمَنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا *** فَعَلَنَ الَّذِي يَفْعَلَنُ فِي ذَاكَ مِنْ أَجْلِي⁽⁷⁾

فقال جميل: هيهات هيهات يا أبا الخطاب! هذا هو الشعر ولا شعر غيره، لا أقول والله مثل هذا سحيس⁽⁸⁾ الليالي، والله ما يُخاطب النساء مخاطبتك أحد. وقام مشمراً⁽¹⁾.

1 - زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق الدكتور/ يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1417 هـ، 1997م: 323/1.

2 - الأغاني، الأصفهاني: 137/12.

3 - المصدر السابق والجزء والصفحة.

4 - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، للخالديّين: 63/1.

5 - ينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه: 189/6، 190.

6 - ديوان جميل بتينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1402 هـ، 1982م، ص36.

7 - ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص153.

8 - أي أبد الدهر. ينظر: الصحاح، الجوهري، مادة (سحس).

ونقل عن الفرزدق أنه سمع شيئاً من نسيب عمر بن أبي ربيعة فصاح، وقال: "هذا والله الشعر الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه"⁽²⁾.

وعن عمر يقول نسيب: "لعمُر بن أبي ربيعة أوصفنا لربّات الحجال"⁽³⁾.

والتقى أحد المدنين جريراً فقال له: "يا أبا حزره، إنَّ شعرك رُفِعَ إلى المدينة وأنا أُحِبُّ أن تُسمِعني منه شيئاً، فقال: إنَّكم يا أهل المدينة يُعجبكم النسيب، وإنَّ أنسب النَّاسِ المخزومي. يعني ابن أبي ربيعة"⁽⁴⁾.

فهؤلاء أربعة من فحول الشعراء في عصره رفعوا من قدره، واعترفوا له بالأفضليَّة والسَّبق، وقَدَّموه على أنفسهم.

وفي التَّقاء الشعراء والنقاشات التي كانت تدور بينهم تراوحت أحكامهم بين المعللة تارة، وغير المعللة تارة أخرى، روي أنَّ لبَّيد بن أبي ربيعة سئل عن أيِّ العرب أشعر؟ فقال: الملك الصَّلِيل، فسئل ثمَّ من؟ قال: الغلام ابن ثمان عشرة سنة. طرفه، فسئل ثمَّ من؟ قال: صاحب المِحن يعني نفسه⁽⁵⁾، حيث يقول [من الرَّمَل]:

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ *** وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَبَّنِي وَعَجَل
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ *** بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى *** نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ⁽⁶⁾.

فلبَّيد في هذا الحكم قضى بالأسبقية في الشعر العربي لشاعرَيْن فخلَّين تقدَّما عليه، دون أن يفصح عن السَّبب أو العلَّة التي جعلته يُقَرُّ بذلك، لكنَّه حين وضع نفسه في المرتبة الثَّالثة بعدهما، حاول أن يأتي بمبرِّر لذلك، فذكر هذه الأبيات، لكنَّ محاولته جاءت ناقصة؛ لأنَّها تفتقر إلى الشرح والتفسير.

من هنا نرى أنَّ تلك المجالس الأدبيَّة خلَّفت تراثاً ضخماً من الأدب، وخلَّفت أيضاً تراثاً من النَّقد، قد يكون نقداً فطرياً ساذجاً قائماً على الطبع والسليقة لا يرتقي لمستوى التُّراث الأدبي لكنَّه بلا شكَّ كان بمثابة اللَّبنة الأولى في بناء صرح النَّقد الأدبي عند العرب، الَّذي بدأ ينمو ويواكب الحركة الأدبيَّة مع بداية اهتمام العرب بالبحث والتَّدوين.

1 - ينظر: الأغاني، الأصفهاني: 1/125.

2 - الأغاني، الأصفهاني: 1/85.

3 - المصدر السابق: 1/83.

4 - المصدر السابق: 1/85.

5 - ينظر: الأغاني، الأصفهاني: 15/367.

6 - ديوان لبَّيد، ص 90.

وفي أواخر القرن الأول الهجري شهدت الحلبة ظهور نقاد جدد خلقتهم الروح الإسلامية الجديدة، وهيات لهم أسباب البحث العلمي، فكانوا معلمًا جديدًا في مسيرة النقد الأدبي، هؤلاء هم اللغويون والنحاة، كان أكثر هؤلاء "يتكلمون العربية تعلمًا لا سليقة، وينقدونها صناعة ودراسة، لا جبلة وطبعًا، وكان نقدهم علميًا صريحًا يراد به خدمة الفن الشعري بعيدًا عن الهوى والتعصب⁽¹⁾."

وكان أولئك النقاد يتتبعون الشعراء، ويحصون عليهم هفواتهم في استعمال الألفاظ وضبطها، واختيارهم لألفاظ دون غيرها، وبنهولهم على مخالفتهم لما تواضع عليه العرب في كلامهم، وكاد نقدهم يكون شاملاً، فو نقد لغوي، ونحوي، وعروضي، وكان أقطابه: أبو عمرو بن العلاء، وعبدالله بن إسحاق، ويحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر، وغيرهم.

فمن النقد اللغوي ماروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع منشداً ينشد بيت النابغة الذبياني في وصف ناقته: [من البسيط]

مَقْدُوفَةٌ بِدُخَيْسٍ النَّحْضِ بَارِئًا *** لَهُ صَرِيفٌ، صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالْمَسْدِ

فقال: ما أضر عليه في ناقته ما وصف؛ لأنَّ صَرِيفَ الفحول من النشاط، وصَرِيفُ الإناث من الإعياء والضرر، كذا تكلمت العرب⁽²⁾

الخاتمة

من خلال هذه الوقفة اليسيرة مع (النقد الأدبي عند العرب) في هذه الحقبة الزمنية الممتدة من بعثة الرسول الكريم (ﷺ) وحتى نهاية العصر الأموي يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

* النقد الأدبي - كما هو معلوم - مرتبط بالنشاط الأدبي بجميع فنونه وأشكاله، وقد فتر النشاط الأدبي في بداية الدعوة فأدَّى ذلك إلى فتور النقد.

* على الرغم من ذاك الفتور فإنَّ حركة النقد استمرت، وكانت متاحة لكل من له حسٌّ مرهف وذوق سليم، من خاصَّة القوم وعامتهم، وكانت في مجملها حركة انفعالية فطرية ساذجة، عدا بعض الأحكام النقدية القريبة من النقد العملي العلمي المعلن: حديث الخليفة (عمر بن الخطاب) عن شعر زهير، ورأي الإمام (علي) في شعر امرئ القيس، وتلك النفائض التي جرت بين شعراء المسلمين ونظرائهم من شعراء المشركين.

1 - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، ص 52 وما بعدها.

2 - ينظر: دراسات في نقد الأدب العربي، الدكتور/ بدوي طبانة، ص 115 وما بعدها.

* جدّت على هذه الحركة مفاهيم جديدة نابعة من التّعاليم السّامية الّتي جاء بها الدّين الحنيف، وأصبحت الملاحظات البسيطة تهمّ بما يتناوله الشعراء من حيث ملاءمته لتلك التّعاليم أو مخالفته لها.

* بدأت الأحكام النّقديّة تتطوّر - وبخاصّة في أواخر القرن الأوّل الهجري - إذ نشأت في ذلك الوقت الطبقة الأولى من العلماء الرواة، الذين كان لهم الفضل في صياغة اللغة، ووضع قواعد نحوها وصرفها، فأدى ذلك إلى اتساع مجال النقد الأدبي، وأضيفت إليه مقاييس جديدة، في الشكل والوزن والأسلوب، فبدأ النّقاد يحاولون تعليل ما يصدرونه من أحكام.

* هذه الحركة الممتدّة لقرن وثلاثة عقود من السّنين، أسهمت في تقدّم النّقد الأدبي وتطوّره، وصولاً إلى مرحلة في النقد الموضوعي الجاد، ثمّ التّدوين.

مصادر البحث ومراجعته

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم الكوفي.
- الأسدي، عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم، ديوان شعر، شرح/ أشرف أحمد عذره، دار الكتاب العربي، بيروت، 1414 هـ، 1994م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق/ سمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط/2، د.ت.
- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الانصاري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بمصر، ط/4، 1961م.
- الإيادي، أبو دؤاد جارية بن الحجاج، ديوان شعر، إعداد الدكتور/ محمد يوسف نجم، بيروت، د.ت.
- البغدادى قدامة بن جعفر بن زياد، نقد الشعر، تحقيق الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط/4، 1407 هـ، 1987 م.
- الخطيئة، جرجس بن أوس بن مالك، ديوان شعر، اعتنى به وشرحه/ حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2، 1426 هـ، 2005م.
- الخالديّان: أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابني هشام، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حققه وعلق عليه/ الدكتور السيد محمد يوسف، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، د. ت.
- الخزاعي كثير عزة، أبو صخر، كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، ديوان شعر، حققه الدكتور/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م.
- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، حقق نصوصه وعلق حواشيه وقدم له الدكتور/ عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط/1، 1418 هـ، 1997م.

- العامري، لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل، ديوان شعر، اعتنى به/ حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/1، 1425 هـ، 2004م.
- العباسي عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1367هـ، 1947م.
- العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، تحقيق/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1406هـ، 1986م.
- القرطبي، أحمد بن عبد ربه بن سالم، العقد الفريد، تحقيق الدكتور/ عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1404هـ، 1983م.
- القرشي، عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، ديوان شعر، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ت.
- القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق/ يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1417 هـ، 1997م.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رثيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط/5، 1401هـ، 1981م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1419هـ، 1999م.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر)، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- الموصلي، أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور/ حسن هنداي، دار القلم، دمشق، ط/1، 1985م.
- النهرواني، أبو الفرج المعافى بن زكريا، المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق الدكتور/ محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت، ط/1، 1413هـ، 1993م.
- الوائلي، طرفة بن العبد بن سفيان، ديوان شعر، شرحه وقَدِّمَ له/ مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/2، 1423 هـ، 2002م.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور/ حنا نصر، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1424هـ، 2004م.
- جميل بثينة، جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، ديوان شعر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1402 هـ، 1982م.
- طبانة بدوي أحمد، دراسات في نقد الأدب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط/7، 1395هـ، 1975م.
- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

- عتيق، عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، بيروت، ط/4، 1406هـ، 1986م.
- علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1405هـ، 1985م.